تكامل البناء الثقافي والاجتماعي والاقتصادي.. وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾

« ١ »

في أعقاب تطوافنا مع مجموعة من الآيات الكريمات في سورتي الأنعام والنحل: قادنا المعلم القرآني على ساحة ما وجه إليه الكتاب الكريم من وجهة بناءة بشأن الانتفاع بطيبات ما تفضل به الله على عباده من الرزق، والإفادة مما سخر لهم من عناصرَ لبناء الحياة ومقومات الوجود الذاتي الفاعل والمنتج في الكون.. قادنا هذا المعلم الكريم إلى قول الله تعالى في الآية الثانية والثلاثين من سورة الأعراف: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

وقد سبقت الإشارة إلى ما قاله علماؤنا في بيان معنى الآية من أن المشركين يشاركون المؤمنين في طيبت الحياة الدنيا وزهرتها، ثم يستخلص الله الطيبات في الآخرة للذين آمنوا، ولا يكون فيها للمشركين شيء، فإن الجنة محرمة على الكافرين.. حتى أعمالهم التي تحمل سمة النفع والخير: ينالهم أجرهم عليها في الدنيا نفعاً مادياً ورفعة عند الناس وسمعة وما إلى ذلك.. وليس لهم في الآخرة من نصيب. ذلك لأن الأساس الذي يجعل للعمل وزناً عند الله ــ وهو الإيمان ــ: مفقود عندهم وليس كذلك المؤمنون الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، فعملوا الصالحات وطوَّعوا تصرفاتهم ومنهج سلوكهم لما تقتضيه الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وهكذا، ترى أن المؤمنين يهديهم ربهم بإيمانهم، فيجمع لهم بفضله إلى زينته التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق: نعيم الجنة في الآخرة، والجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وهذا ما يرتفع بالمؤمن دائماً إلى مستوى العمل المثمر الذي يعود عليه وعلى مجتمعه بالخير والنماء... ويحول دونه ودون الانحراف. وفي الوقت نفسه يجعله ـ بإيمانه ـ وما يثمر له من خير عند الله أقوى من العوائق والمثبطات... وعملية البناء الكبرى، على صعيد الإنسان والمجتمع: تحتاج أول ما تحتاج إلى تلك الكفايات البشرية التي تتمتع بقدر كبير من الاندفاع القائم على حوافز ذاتية من داخل النفس، والتي يكون لها من سمو الغاية المرجوة عند الله ما يستعلي بها على العقبات وكلِّ ما هو مدعاة لليأس أو الانحراف.

فمهما نال المؤمنَ من المتاعب في هذه الدار وهو يكدح على طريق البناء... يجد الأمر هيناً إذا قاسه بما أعد الله للمؤمنين في الآخرة وأن الله تعالى لا يضيع عنده عمل عامل مهما كان شأن ذلك العمل. والآية التي نحوِّم في معانيها واضحة في هذا الذي نقول؛ فبعد قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ جاء ما يكشف عن العطاء الإلهي وسببه ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إن الإيمان وهو القاعدة التي يبنى عليها عمل المؤمن: هو الذي كان سبب هذا العطاء الإلهي؛ فزينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق هي للذين آمنوا في الدنيا يشركهم فيها الناس، لكن العطاء الإلهي في الآخرة خاص بهم بوصفهم مؤمنين.

مرة أخرى مع التكامل في البناء الثقافي... وغيره وآية الأعراف

«٢»

كثيراً ما يعين سياق الآية الكريمة وما سبقها وما تلاها على تبين المغزى المراد، وتجلية الأبعاد التي يأخذها ذلك المعنى كما هو في عطاء المعلم القرآني.

وددت أن أسوق هذه الكلمات تعقيباً على ما أسعدنا به قول الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾. وما أشهدنا ذلك من تلك اللمحة المضيئة في المنهج الرباني على ساحة البناء لشخصية المسلم بناءً يتسم بالقدرة على الاندفاع الذاتي، وتجاوز العقبات رغبة فيما عند الله، ويقيناً بأن الله تعالى لا يضيع عنده مثقال ذرة، وذلك فارق ما بين المؤمن والكافر، فالمؤمن يستمتع ـ وهو على الجادة مستقيم العمل والسلوك ـ بخير الدنيا يبنيها وينميها وينفع نفسه ومجتمعه، وتكون له الجنة في الآخرة خالصة من دون الكافرين.. أما أولئك الذين عموا وصمّوا عن الحق ورانت على قلوبهم الضلالة.. فيأخذون حظهم من الطيبات في الدنيا، ولكن ليس لهم في الآخرة من خلاق.

ولقد سبقت الآية الكريمة المشار إليها بقول الله جل وعز: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ وقد ورد عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ قال: كان رجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم الله أن يأخذوا زينتهم وهي ما يتزين به الناس من الملبوس عند الصلاة والطواف.

وكذلك روي عن عدد من التابعين وغير واحد من أئمة السلف في تفسير الآية أنها نزلت في طواف المشركين بالبيت عراة. تبع ذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾.

فمشروع للعباد أن يستمتعوا برزق الله وما أنعم به من الخيرات دونما سرف، فالسرف حرام والله لا يحب المسرفين. إنها المنهجية البنَّاءة في التعامل مع أنعم الله التي يفيضها رزقاً على عباده يتنعون بها دونما تجاوز التحليل والتحريم، دونما شح في أداء الحقوق، كما قال تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾[الإسراء: ٢٩]. ودونما وقوع في السرف الذي كثيراً ما يؤدي إلى إضاعة المال، وبعثرة الثروة، وإلى إهدار الحقوق الواجبة في ذلك المال، الأمر الذي يؤدي إلى الظلم الاجتماعي، وإدخال الوهن إلى بنيتي المجتمع الاقتصادية والاجتماعية؛ لذا كان المبذرون إخوان الشياطين وقد أشرنا إلى ذلك في كلمات سلفت عند الذي رأينا من اقتران الأمر بأداء الحق الواجب في المال، وبين النهي عن الإسراف فيما جاء في سورة الأنعام من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ حيث أذكرنا المعلم القرآني ما جاء في سورة الإسراء من قوله جل شأنه: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٧].

التكامل في البناء.. التسخير وعلاقة الإنسان. الكون والحياة

«٣»

النهج الذي دعي العباد إلى التزامه في التعامل مع النعم التي أنعم الله بها عليهم والرزق الذي يسَّر لهم مفاتيحه فيما سخر لهم من كونه في البر والبحر والجو.. هذا النهج ـ كما رأينا في سور الأنعام والأعراف والإسراء والنحل ـ: يتسق تمام الاتساق مع الذي فطر الله عليه الإنسان وأودع فيه من الاستعداد والميول.. وتلك هي الواقعية الحكيمة التي تتمثل في ذاك الاتساق، بحيث ترى أن العلاقة بين الإنسان ـ كما خلقه الله وكونه وأعده للخلافة في الأرض ـ وبين الكون والحياة: علاقة تُسلم في ظل الاستجابة الصادقة لدعوة الحق إلى البناء الذي يتسم بالسلامة، ويحقق ـ مع كرامة الإنسان وطمأنينته ـ الوجود الذاتي المتكامل لمجتمع متماسك قوي، وللأمة التي شاء الله أن تكون ـ بالإسلام ـ خير أمة أخرجت للناس.

وفي رحلة مع هذه المقولة ألقينا عصا التسيار عند قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

وقادنا النظر فيها إلى الآية التي سبقتها، لما أن بين الآيتين الكريمتين لوناً من التكامل هو من سمات الكتاب المعجز، في التوجيه البناء إلى أن يكون المؤمنون، وهم يرتادون لأنفسهم وللبشرية طرائق البناء للإنسان والمجتمع.. أن يكونوا على النهج الذي يبدو على غاية التواؤم مع سنة الله في علاقة الإنسان بالكون والحياة. والآية المشار إليها هي قول الله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ

مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ وقد أشرنا فيما سلف من القول هناك إلى سبب النزول حيث كان المشركون يطوفون عراة حول البيت وجاء الأمر الرباني باللباس عند الصلاة والطواف، كما أشرنا إلى حكمة الاقتران بين الدعوة إلى الاستمتاع بالنعمة والانتفاع بها، وبين النهي عن السرف الذي كثيراً ما يؤدي إلى بعثرة الثروة والظلم الاجتماعي، وإدخال الوهن على المجتمع في بنيته الاقتصادية والاجتماعية.

وفي السنة مزيد من الإيضاح لهذه القضية المهمة على صعيدي التصور والتطبيق في المجتمع. فقد روى الإمام أحمد بسنده عن عمرو بن شعيب عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «**كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مَخيلة ولا سرف فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده**» وفي رواية للنسائي وابن ماجه «**كلوا وتصدقوا والبسوا من غير إسراف ولا مَخيلة**» والمخيلة: الكبر، ومن هنا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة» أرأيت إلى هذا التكامل في المنهج وإلى التوازن في حركة الإنسان نفسه كما خلقه الله وكونه وفي علاقته بالحياة.

إن المؤمن يتحرك على ساحة البناء مطمئناً دونما عقد ولا أمراض نفسية ولا رغبة جامحة في تجاوز الحق، وكل أولئك ضمن منهج رباني حكيم، لأن الإسلام وجه علاقته بالكون والحياة التوجيه الواقعي الذي يتواءم مع حقيقة ما فُطر عليه الإنسان بحكمة الخالق الذي خلقه في أحسن تقويم، فسوَّاه فعَدَله، ومع الصورة المثلى التي شاء الله أن تكون لعلاقته بالكون والحياة.

وقد أثمر ذلك في ظل الاستمساك بهدي الإسلام أقوم حضارة وأمثلها كما تشهده الوقائع وتنطق به مظاهر العطاء الخيِّر للإنسان ونصرة الحق عبر القرون.

مع آيتي الأعراف... وتكامل البناء والبُنى

« ٤ »

نعود اليوم مرة أخرى إلى الآيتين الكريمتين من سورة الأعراف وهما قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

نعود إليهما لنقتبس من عطاء المعلم القرآني فيهما ما يهدي إلى لون من التكامل، له أثره الملحوظ في النهج الذي وجَّه العباد إلى سلوكه وتطويع النفوس له عند التعامل مع أنعم الله التي أنشأها لعباده ورزقهم من طيباتها. فالزينة التي أمر بنو آدم بأخذها: مقصود بها ــ كما رأينا من قبل في سبب النزول ــ اللباس عند الصلاة والطواف؛ لأن المشركين كانوا يطوفون عراة في البيت الحرام، فجاء التوجيه الرباني إلى الأدب الواجب مع الله ومع بيته المطهّر. ثم تبع ذلك ما يرى في الآية من دعوة إلى الاستمتاع بنعم الله، وأوضح صورة لذلك ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ واقترن ذلك بالنهي عن السرف والوعيد الشديد عليه ﴿وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ وأي وعيد أشد من أن الوقوع في هذه المهواة مجلبة لعدم محبة الله تعالى.

وينتقل بنا التوجيه الرباني الحكيم على ساحة البناء المتكامل للإنسان في تصوراته ومشاعره وفق ما فطره الله عليه.. وعلى ساحة الممارسة لشؤون الحياة والتعامل مع ما أودع الله في هذا الكون من خيرات وما سخر منه للإنسان من أنعم لا تعد ولا تحصى...

ينتقل بنا هذا التوجيه إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ فمن توجيه إلى أخذ الزينة وهي الملبس هنا في حالة معينة وإباحة الانتفاع بالرزق مع النهي عن السرف والتوعد عليه ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ إلى نظرة كليّة عامّة بهذا الشأن وهي أن الله تعالى قد أباح لعباده أن يتمتعوا ضمن الحدود التي رسمها في التحليل والتحريم: بما أخرج لهم من زينة في الحياة الدنيا، وما أباح لهم من طيبات الرزق وقد جاء هذا التقرير على صيغة الاستفهام الإنكاري ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ﴾ الذي يقتضي أنه ما من أحد يملك أن يخالف عن أمر الله فيبتدع ـ كما كان يفعل الجاهليون ـ تحليلاً وتحريماً من عند نفسه. وإذا حصل ذلك فهو عنوان الضلال، وأشد منه ضلالاً أن يُفترى على الله الكذب، فتنسب إليه سبحانه تلك الأحكام الجائرة التي تحول دون العباد، ودون أن يفيدوا مما رزقهم الله من نعم وأن يستمتعوا بما أخرج لهم من زينة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾.

وهكذا نجد لوناً من التكامل بين الآيتين الكريمتين، يبرزه التدرج من الجزئية في الموضوع، إلى الكلية التي تتمُّ عن سمو المنهج الرباني واتساقه مع ما خلق الله عليه الإنسان وكوّنه، ومع الطريقة التي شاءها سبحانه لتعامل الإنسان مع الكون المسخّر والحياة.. الأمر الذي يسعف الإنسان في تحقيق ما خلقه الله من أجله عبودية له وحده في العقيدة والشريعة، وإدارةً لحركة الحياة، الحياة بانشراح صدر وطمأنينة على الوجه الذي يشيع النماء والخير في المجتمع، ويسيِّر الطاقات والإمكانات في قنوات مأمونة، وذلك ما يقتضيه المنهج الرباني في البناء. وذلك ما حققته الأجيال التي أخذت بالإسلام عقيدة وعلماً وعملاً وسلوكاً فكانت الحضارة الفضلى وكان الخير العميم.